الخميــــــــس 27-01-2011

1245- فـــي شـــرف صحبــــة نجيـــب محفـــــوظ

الحلقة الستون

الجمعة : 19/5/1995

د. فتحى هاشم، زكى سالم، قدرى، يوسف عزب، خالد الرخاوى، محمد يحيى، الأستاذ عندى فى بيته/بيتى، بدأت الحديث هذه المرة لأكمل ما كان بين الأستاذ وبينى بشأن ندرة قراءة الروائى بالذات لعمله، وماذا لو قرأه، وماذا لو كان ناقدا مثل إدوارد الخراط وقلت نشرك زملاء الجلسة فى هذه القضية، ثم استدركت بعد فتح باب النقاش إلى أننى تعمدت أن أبدأ قضية أدبية حتى لا تتكرر نفس المواضيع التى غلبت على جلسات الجمعة فى بيتى، وهى المواضيع التى تدور عن السياسية وثورة التكنولوجيا والمعلومات والحكم الإسلامى الجديد، وحين أعلنت رغبتى هذه استقبلها محمد، وإلى درجة أقل خالد ويوسف أنها ليست رغبة وإنما هى حظر على ما سواها، وقال محمد لماذا قضية أدبية بالذات، فتعللت وقلت لأننا نفتقد فى جلساتنا إلى جرعة مناسبة من الحديث عن دور النقد الأدبى فى حفز الإبداع هذه الأيام، ولم يقبلوا التفسير أو التبرير، وظل الاعتراض قائما.

رد الأستاذ على تساؤلى وكأنه يرجح رأيي فى فتح الموضوع: بأن مثل هذا الناقد الذى سيتصدى لنقد روايته شخصيا لن يكون موضوعيا تماما، وقد تغلب عليه عاطفة ما، فنبهت أننى لا أعنى أن يقوم بنقد بمعنى أن يقرر أن هذا حسن وهذا غير ذلك، بل إننى أقصد مناقشة تساؤل يقول: هل يمكن أن يكتشف الكاتب فى إبداعه، إذا ما قرأه ناقدا، هل يمكن مثلا أن

يعيد اكتشاف نفسه أو أسلوبه أو بعض ما ظهر منه وكان غائبا عنه مثلما يفعل الناقد؟ وأجيب عن تساؤلى أنه قد يكتشف نقصا كان يرجو أن يكمله، وقد يعطله ما يكتشفه، وقد يدفعه إلى أن يكمله فى عمل لاحق، ولا يشاركنى أحد بما أتصور، فأشك فى توصيل رأيي خاصة للأستاذ، قلت للأستاذ إننى أتصور لو أننا أعطينا لكل كاتب عملا من أعماله المشهورة، أو حتى بالمصادفة، وطرحنا عليه أسئلة من هذا القبيل فإننا سنحصل على إجابات هامة ومفيدة فى فهم الإبداع والنقد وغير ذلك

سألنى الأستاذ هل أنوى أن أقوم بمثل هذا الاستجواب أو الاستفتاء فى بحث مثلا، فأجبت بالنفى طبعا، فلا أنا أهل لذلك، ولا هذه هى طريقتى، ولكننى طرحت هذه القضية حين أتيحت لى الفرصة أن أرجع إلى بعض نقدى لملحمة الحرافيش فوجدت فى الرواية من الرؤى والإلهام والعمق والإبداع، ما حسبت أن الأستاذ لم يره مرة أخرى بعد أن كتبه، قال الأستاذ: إن هذا صحيح، ولست أدرى لماذا لا يرجع الكاتب لما كتب؟ وأضاف إن هناك عاملا هاما فى هذه القضية وهو أن الكاتب متى انتهى من كتابة عمله أحس براحة الخلاص من التوتر والانشغال والانهماك والاستغراق، فلا يكاد يريد أن يعود إليه أبدا، وإن كان قد يضطر إلى قراءته أثناء الطباعة، وهو يصحح البروفات مثلا، أما بعد ظهور العمل فهو قد يتعمد ألا يرجع إليه حتى لا يكتشف أخطاء قد تغمه حيث لا مجال لإصلاحها، ووافقته على الجزء الأخير، وقلت له إن من أكبر ما قابلت من أخطاء ليست منى وإنما من مصحح ساذج، هو ما ظهر على غلاف دراستى عن عمله "ليالى ألف ليلة" كان بعنوان "القتل بين **مقامىْ العبادة** والدم"، وقد ظهر هذا العنوان على الغلاف هكذا: القتل بين *مقاهى العبارة* والدم، مع أنه ظهر صحيحا فى داخل الكتاب، وقلت إننى أعتقد أن المصحح هو الذى أدخل هذا الخطأ لأنه لم يتصور أن القتل يكون بين "عبادة ودم" أو أن فى المسألة "مقامات"، وهو يعلم أن الأستاذ يحب المقاهى، وأن صقل "العبارة" هى من أهم أدواته، فاستقرب وقلب مقامَىْ العبادة والدم" إلى "مقاهى العبارة والدم"

وضحك الأستاذ مرة أخرى (لعلى ذكرت له هذه الحكاية قبلا، لست متأكدا)

ثم أردف: إن هذه المسألة التى طرحتها - استبعاد احتمال أن يقرأ الكاتب نفسه - تسرى على الرواية أكثر، أو فقط، لأن الأعمال الأخرى مثل الموسيقى والغناء (والفن التشكيلى عموما) تذاع على الناس مرارا وتكرارا، ولابد أن يسمعها (أو يراها) صانعها ومبدعها حتى وإن لم يقصد، وبالتالى سوف يكون له رأى لاحق أو رأى ناقد، قلت للأستاذ إن عزوف المؤلف عن قراءة مؤلفه قد يمتد إلى العمل العلمى، فكثيرا ما يقتطف أحد طلبتى بعض كتبى العلمية أو أبحاثى، فأضطر إلى العودة إلى المرجع الذى أنا مؤلفه، فأكتشف أننى لم أقرأه بعد أن انتهيت منه ونشر، وأنه به ما به، وأضفت للحاضرين ما سبق أن ألمحت به للأستاذ من أن هذا الخاطر جاءنى وأنا أقرأ دراستى

النقدية عن الحرافيش، وقلت إننى وقفت أمام عبارات لم أتصور أن الأستاذ كان يعنيها بكل يقظة وعيه حين وضعها بهذه الصورة، لكنها جاءت بصورتها المبدعة هذه من جماع وجوده، وأنه لو قرأها قد يستغرب ويعجب مثلنا، وضربت لذلك مثلا بما جاء فى أول سطر فى الحرافيش، وسير "عفرة زيدان" فى الممر العابر بين الموت والحياة، وقلت إن مفتاح دراستى المبنى على الفرض القائل: **إن الموت هو الأصل، وإن الحياة تبدأ وتتعمق مع الوعى بالموت** قد بدأ هذا وذاك من تأمل هذه العبارة، فالقرافة هى موقع الموت الجسدى، والأوْلى أن يأتى التعبير عن الممر بين الحياة (المساكن والحارة) والموت القرافة، أما أن تنقلب العبارة فيكون **الممر بين الموت والحياة**، فهذا ما جعلنى أرجح أن محفوظا أراد - ربما دون أن يقصد تماما- ما وصلنى، وسألته مباشرة هل لاحظ هذا الفرق، وهل لاحظ أن الموت جاء قبل الحياة، وأن وصف الممر كان بين الموت والحياة وليس بين الحياة والموت، وقال باسما مندهشا راضيا: أبدا

فتحت موضوعا آخر - ربما لملاحقة رغبتى أن نبتعد عن السياسة والدين والتكنولوجيا هذه الليلة- وقلت للأستاذ: إكمالا لحديثنا وأنا أوصّله ليلة أمس: إنه ينبغى أن نحرص على الحفاظ على الحلم حتى ولو كان ذلك بعيد التحقيق أو بدت استحالته جلية كما يشير مُرّ واقعنا الآن، وكررت أن انهيار الاتحاد السوفيتى قد أسقط معه مشروعية الحلم، وأن الشباب هذه الأيام، بل والشيوخ أيضا قد توقفوا حتى عن الحلم، قال محمد يحيى إن الشباب هذه الأيام يحلم أحلاما سهلة وشاطحة، فهو إما أن يحلم بأن يعثر على حقيبة مليئة بالنقود، وإما أن يحلم بالسفر إلى الخليج، ليعثر على الحقيبة أيضا (بعد أن يتنازل عن الكرامة والحياء)، وينبه الأستاذ بإفاقة رائعة أننا نتكلم عن الحفاظ على الحلم العام وليس على الأحلام الفردية، ويضيف أنه يعرف شخصيا ناسا - اثنين أو أكثر- من الأصدقاء مازالوا يحلمون حتى الآن بتحقيق الشيوعية حتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، قلت له: لا هم أكثر من اثنين بكثير، وهذا طيب، ومضى يشرح ما عجزت أنا عن إيضاحه وأنا أطرح المسألة على هذا الوجه، وأحسست أنه أكثر واحد فينا قادر على الاحتفاظ بالحلم.

لست أدرى ما الذى جعل زكى سالم يسألنى عن تقسيمات الشخصية، وكيف أوفقِّ -كما أكرر- بين فكرة أن الناس يمكن أن يصنفوا إلى انطوائيين وانبساطيين ووسواسيين، وغير ذلك، ثم فى نفس الوقت أنه فى النهاية يكون كل إنسان مختلفا ومتميزا تماما مثل بصمات الأصابع؟ وأنا لا أحب أن أجيب عن مثل هذه الأسئلة إجابات سريعة مختصرة، ولكن رفضى قد يساء فهمه، فقلت إن "علم التصنيف" بدأ حين اضطر علماء النبات إلى تصنيف الزهور والثمار والنباتات عامة، فقسموها إلى فصائل لكلٍ ميزاتها وصفاتها الجامعة المانعة، ثم امتد الأمر إلى تقسيم الأمراض، ثم إلى تقسيم الشخصيات، وهذه التقسيمات عادة لا هى دقيقة، ولا هى جامعة مانعة، وهى لا تفيد إلا فى الأرشفة والتكلم بلغة مشتركة أحيانا، وفرقٌ بين الاتفاق على تجميعات

معينة، وبين التعرّف على ظاهرة بذاتها أو على شخص فرد بما هو تحديدا، والتقسيم الأمريكى الثالث والرابع للأمراض النفسية يسيء إلى الطب النفسى والبشر والمرضى والأطباء بقدر ما تسيء مركزية النظام العالمى الجديد، فهو يوحد اللغة بين الأطباء على حساب البعد عن المريض، وهذا ما يسمى أنه عالى **"الثبات"** ضعيف **"المصداقية"** ، وكنت عازفا عن إكمال الحديث لولا أن الأستاذ كان منتبها أشد الانتباه حتى استزادنى واستوضحنى، فرجعت تحديدا إلى سؤال زكى سالم وقلت له إنه حتى تقسيم "يونج" للبشر إلى انطوائى وانبساطى هو تقسيم ضعيف، وقد شاع بين الناس بصورة استقطابية لم يقصدها يونج، حيث أنه حدد مستويات مختلفة يمكن أن يوصف بها كل فرد وصفا مختلفا، إذ يمكن أن يكون الشخص انبساطيا على مستوى التفكير، وانطوائيا على مستوى العواطف أو السلوك، كما يمكن أن يكون الشخص انطوائيا على مستوى التفكير وانبساطيا على مستوى العواطف وهكذا، لكن الناس تختزل هذه المسائل وتقربها إلى ظاهر الأمر ويتم تجميع البشر فى فئات أو فى فئتين، بل إن هناك نظرية لها فضل على مسار فكرى فى مرحلة باكرة تعتبر كل الوجود البشرى متمحورا حول محاولة تجاوز أو حل الظاهرة الشيزيدية (المرادفة عادة عند العامة لكلمة انطوائية) وهى الظاهرة التى تعلن صعوبة عمل علاقة صحية كاملة مع الاخر، مع شدة الحاجة إلى ذلك. وتأتى الاختلافات الفردية نتيجة لتنوع محاولات "حل هذا التحدى الملقى فى بؤرة الوعى البشرى"، وخلاصة القول: إن التقسيم هو للأرشفة، أما حقيقة الشخص فلا يكشف عنها إلا تفرد خاص، وتعامل عميق، وطويل، ومتنوع فى ظل درجات مختلفة من الضغوط والمتغيرات

خجلت من نفسى حين استُدرْجت إلى تفاصيل علمية خاصة، فأردت أن أقرب المسألة لمنطقة اهتمامات الأستاذ والحاضرين، فقلت إن خطر هذا الاختزال وهذه الأرشفة يأتى من مبالغة النفسيين فى تقييم معلوماتهم، حتى أننى إذا دعيت إلى لجان الإعلام أو اللجان الفنية وهم يتصورون ضرورة استشارة أخصائى نفسى فى نمط شخصيات معينة، أقول يا رب سترك، وضربت مثلا للتحول الجذرى الذى جرى لبعض (أو أغلب) شخصيات رواية الحرافيش بما يجعل تحديد نمط ثابت للشخصية بتوصية المختص النفسى أمر مضحك، وما لم يكن هذا المختص النفسى فاهما لمسألة التفرد وإعادة الولادة عبر مسيرة نمو كل فرد، فإنه قد يصدر أحكاما وصية تفسد وتنمّط العمل الفني.

قبل أن أستأذن لألحق اجتماع دفعتنا (يناير 1957 / أربعين سنة إلا سنة ونصف) كان قدرى قد بدأ الحديث -كالمعتاد- عن ضرورة التكنولوجيا، وقال إنه التقى بأحد الإسرائيليين فى معرض فى ألمانيا، وأن هذا الإسرائيلى واجهه بصراحة بأن التحدى الملقى علينا هو إتقان التكنولوجيا، وأنه إذا لم نسارع فنحذق هذه الأداة الجديدة فليس لنا أى مستقبل على وجه الأرض، ملت على الأستاذ أستأذنه، وقلت له إننى أعتذر لارتباطى بموعد دفعتى، ولكنى أذكره برأيي السابق فى

كلام قدرى، وأننى لا أتلقى مثل هذا النقد من إسرائيلى بصدر رحب، نعم إنه لا غنى للطفل عن تعلم المشى حتى يحقق أى نمو، لكن ما لم نسأل إلى أين ستقودنا أقدامنا هذه فقد نمشى إلى الخلف، وقد نمشى إلى الهاوية، صحيح أننا سنمشى وإلا سنصبح عجزة، أما أن نركز على المشى للمشى، فهذه هى الخطورة

ضحك الأستاذ، وبرغم خجلى من تكرار نفس "التيمة" إلا أننى فهمت أن عنادى وصله، وانصرفت.

- Reliability

- Validity